

أدب الطفولة

في ضوء التصور الإسلامي

د. أحمد زلط

□ في ظل الإسلام حظيت الطفولة برعاية متكاملة : تنشئة وتربية وثقافة .

□ هذا الأدب هو المستقبل لموازنته بين الجانبيين : المادي والروحي .

يعد أدب الطفولة أحد أهم الأنواع الأدبية المتجددة في أدبنا العربي والإسلامي؛ وهو أدب مرحلة عمرية متدرجة من عمر الإنسان، يخاطب شريحة اجتماعية من سن ما قبل المدرسة إلى بداية مرحلة الفتوة والشباب، لذلك عُرف ذلك اللون الأدبي المستحدث بخصائصه الذاتية ومعايير الفنية وأهدافه المتعددة.

الماضية - لم يغفل الالتفات إلى الطفل بالرعاية والعناية، ولقى الطفل في ظل الإسلام الرعاية المتكاملة في أتم صورها: تنشئة وتربية وثقافة، ولقد حظيت الطفولة مع ظهور الإسلام بأقصى ما يمكن أن تنشده البشرية لأطفالها. . ثروتها الحقيقية . . من زمن يبدأ فيه اختيار أم الطفل وحمله ورضاعته وتسميته وتعليمه وتأديبه، إلى أن يُلقن خصال الفتوة وشيم الرجولة والسلوكيات الحميدة.

إن نظرة متأنية إلى أدب الطفل العربي المسلم في العصر الحديث، ستجد من خلالها الانعكاس الإيجابي لمردود الإفادة من موروث الحضارة العربية الإسلامية تجاه الطفل وأدبه، لا جرم قد أفاد العقل العربي من الأفكار الغربية الوافدة على طريق نمو ذلك الميدان، لكنه ارتكز - على كل حال - على جذوره في البيئة الأم: «خلود توجهات العقيدة الغراء، والموروث الأدبي والشعبي، فيما يتعلق بأهم غاية أو وظيفة في أدب الطفولة وهي: الهدف الأخلاقي . . إتنا نستطيع القول في اطمئنان أن العصر الحاضر - شهد - ويشهد نمواً واعياً لا يغفل الأسس الراسخة في بناء الإنسان؛ وفقاً لركيزة روحية باقية وتعني بها: عقيدتنا التي تسع في رحابها وشمول نظرتها آفاق الحياة والأجاء، وأداب العقيدة - السلوكية والمعنوية والفنية - من العوامل الحاسمة في التربية الوجدانية والعقلية لما نسبته الأمة، في ضوء ذلك يمكن القول: إن الحضارة الإسلامية لم تغفل أهمية فنون الشر أو الشعر وفنونه

وليس من شك أن أشكال التعبير الأدبي التي تتوجه للطفل بمشابة الفروع النوعية المنبثقة من أصول شجرة الأدب الكبرى في أدب أية لغة عالمية، وأدب لغتنا العربية شأنه شأن أدب لغات الشعوب الإسلامية يزدهر بشتى أشكال التعبير الأدبي للأطفال؛ وعنهم ومنهم . ولم تكن هنالك أية عقبات تحول دون نمو أدب الطفولة أو ازدهاره سوى تناثر نتاجه فوق صفحات النتاج الموروث ومن ثم عدم المواضعة المصطلحية له كمفهوم أدبي أو نقدي باعتباره موزعاً بين أمهات الكتب أو في احضان تراث الأدب المدون للكبار. بالرغم من ذلك فإن أدب الطفولة نوع أدبي أخص من جنس أعم في مجاله الأساسين: الشر وفنونه، والشعر وفنونه.

وفي الواقع أن أدب اللغات الإنسانية مدين لتراثنا وللجذور المشرقية في مجال نشأة أدبيات الطفولة، إن استقراء الأدبيات المقارنة يكشف لنا عن خصوصية التأثيرات المتبادلة في ميدان أدب الطفل وفنونه؛ ففروع الأدب العالمي للناسئين متقولة - في أغلبها - عن أصول عربية مشرقية؛ أما الأدب المعاصر الوافد فإنه يغزو عقل الطفل ووجدانه تحت مسلمات وأهمة تقول: إن أدب الطفولة غربي المنبت، أوروبى الابتكار، أجنبي الأصل، وإن أمتنا العربية والإسلامية - في ضوء ذلك التوهم الزاعم - لا تملك من أدبيات الطفولة أي نصيب يذكر؟! .

وتراثنا العربي - طوال الحقب التاريخية

يفتح قلبها للإسلام، فتنبك على قراءة كتب الثقافة الإسلامية، وأخيراً تنطق بالشهادتين. كتبت (لعثمان أمين) بعد إسلامها تقول:

«وجلس طوال الليل لا يقرب النوم جفني، المظلّمون يحترقون بنيران المظالم صباح مساء ويكادون يفتقدون الثقة في كل شيء . . . مجتمعنا تسوده قيم قذرة في هذه الفترة التعسة، ولكني واثقة أن الخير لا يموت، وأن العذاب الذي نعاني منه مصيره إلى الانتهاء، وأعود انظر إلى قضيتي فلا أجد لما أعانيه من سبب سوى أنني اخترت طريقي في العقيدة التي أمنت بها، واخترت الرجل الذي أحبيته . . . أيمكن أن يكون ذلك جريمة أو إساءة إلى أحد؟!» (٢)

كما نستمتع بالصورة التي أبدعها الكاتب لدخول الرسول (عليه الصلاة والسلام) مكة مع أصحابه أداء العمرة في أثناء الهدنة مع قريش بعد صلح الحديبية. فنرى جلال ذلك المشهد، وتأثير تلك الروح القدسية التي تهيم على ذلك الموكب الإيماني، كما نرى روعة التزام الصحابة بأوامر رسول الله (عليه الصلاة والسلام) وحسن أخلاقهم، ونصغي إليهم وهم يشدون بذلك النداء العذب (لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده).

إن القصة تعمل عملها لتوضح ذلك المشهد العظيم الذي هز نفوس الكفار الذين كانوا يتطلعون إلى المسلمين من فوق رؤوس الجبال المحيطة بالبيت العتيق.

وإذا كانت تلك الروايات مع كل ذلك الشاء العطر، لا تخلو من ملحوظات في سمتها الإسلامي المميز إلا أننا نجد فيها بعض ما نبحت عنه في الساحة الثقافية المعاصرة.

ومن الطريف أن الدكتور الكيلاني قد ذكر لي أنه قابل في أحد مواسم الحج أحد الأخوة النيجيريين الذي قال له: أأتم لا تعرفون قضايا بلادنا، ولا تهتمون إلا بأنفسكم، كاتب واحد هو نجيب الكيلاني اهتم بقضايا المسلمين في نيجيريا، وعبر عنها بكل دقة وأمانة.

وكانت مفاجأة له حين عرف أنه يتحدث مع نجيب الكيلاني نفسه.

إن سلسلة روايات إسلامية معاصرة تمثل وحدها إنجازاً كبيراً في عالم الأدب الإسلامي وتخطو به خطوات واسعة في مسيرته الموفقة إن شاء الله، ولئن اختلفت مستويات الالتزام الإسلامي في روايات الدكتور نجيب فإن الاتجاه الإسلامي يظل واضحاً كل الوضوح في أدبه الروائي الذي يعد إضافة بارزة إلى مكتبة الأدب الإسلامي.

(١) رأس الشيطان: ١١ - ١٢ (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩ - ١٩٧٩ م).

(٢) دم لفظير صهيون: ٩٠ - ٩١ (دار القنائس ط: ٢، بيروت ١٣٩٠ - ١٩٧٠ م).

(٣) عمالقة الشمال: ١٣٣ (دار القنائس ط: ٢، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م).

تنمية لدور «المؤدبين» ودور المكتب (الكتاب) ومنه نقتطف مقولة ابن سينا:

«من الضروري البدء بتهديب الطفل وتعويد ممدوح الخصال منذ الفطام» وما رواه الجاحظ: «علموا أولادكم العوم والغروسية، ورووهم ما سار من المثل وما حسن من الشعر». وفي خط مواز كانت رؤية القدماء ثاقبة وهي تؤكد أهمية أدب الطفل وتربيته المتكاملة انطلاقاً من مفهوم ديني واسع؛ ومنه أن الطفل يسذهب «للمكتب = الكتاب» ومنه قريب من السابعة ثم يقضي ما يقرب من ثلاث سنوات أو أربع في استظهار القرآن والوقوف على مبادئ أصول الدين وتعلم بعض اختيارات اللغة والشعر (١). وقد حرص الأجداد على تنمية الخصال الحميدة أو القيم العليا في الطفل وغرسها في طبعه منذ نعومة أظفاره، ومنه مقولة الغزالي الصائبة «لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات» (٢). ويستطرد الغزالي ليؤكد أهمية التوجه الأخلاقي في أدبيات الطفولة مما لا يتعارض مع المعنى الفني للأدب، دليله الاستشهاد بالحديث النبوي: «حسنوا أخلاقكم» ورصيفه «ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن» (٣). ومن المعلوم أن د. طه حسين أشار إلى ذلك الاتجاه (الديني الأدبي) فقال: «أنا أعلم حق العلم أن من المتقدمين من كان يعدل عن رواية الفاحش من الشعر سواء أكان فحشه مؤذياً للعاطفة الدينية أو للأخلاق أو الأدب» (٤). إذاً لا يصير أدب الطفل المسلم أن أولويات أهدافه: تلقين أسس العقيدة الروحية وغرس القيم والخصال الحميدة، إن أطفالنا بعد اكتسابهم تلك الأسس والقيم سيستطيعون في أطوار حياتهم أن يكسبوا المجتمع، - أو الأمة ككل - ثروة بشرية صحيحة لغت البيان الصائب ونالت قدرًا لغويًا ومعرفيًا ووجدانيًا يفيدهم في معترك الحياة.

لقد قدم الرسول ﷺ «القدوة» في تربية الطفل وتأديبه وملاطفته ففي الحديث «ريح الولد من ريح الجنة» وكثيراً ما دأب الحسين والحسن رضي الله عنهما؛ وقال فيهما «إنكما من ريحان الجنة» (٥). واقتدى بسلوكياته ﷺ سائر الصحابة والتابعين، ومن ذلك ما جاء في كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: «مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي». ومنه قال معاوية: «وجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب» (٦). ومنه أيضاً ما تقدم به الرشيد لمؤدب ولده الأمين فقال: «يا أحمر... إن أمير المؤمنين قد دفع إليكم مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصبر يدك عليه مسبوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين؛ أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروء الأشعار، وعلمه الشنن، وبصره بمواقع الكلام» (٧). والكلام لغة هو الأداء اللغوي المنطوق أو المصنوع به؛ وأهميته البالغة لم تغفل حضارتنا الإسلامية ضرورة تجويده ومعرفة أسراه فصير ملكة أو صفة راسخة في طباع الناشئين، ومنه قول عائشة رضي الله عنها «رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم» (٨).

بين الأدب الإسلامي وأدب الطفولة:

ليس من الغلو القول بأن الرابطة الحميمة بين «الأدب الإسلامي» وأدب الطفولة كغلبة بتأصيل قاعدة الانطلاق لأفاق الأدب الإسلامي وأبعاده الإنسانية، فأدب الطفل المسلم بذرة صحيحة ألفت في تربية الأدب الإسلامي وهي تربية خصيبة، وأم حانية مدركة، قادرة على العطاء. لا جرم؛ إذا كان الأدب الإسلامي في إطار مسيرته الفاعلة المعاصرة يواجه «كمفهوم أو تنوع في النتائج» ببعض المعوقات من أصحاب الفلسفات المادية أو فلولها - فإن الأدب الإسلامي هو أدب المستقبل لأنه يحكم ميراثه الطويل الأدب الشر المتوازن في الجانبين الروحي والمادي بينما نجد المذاهب الأخرى تبدل ولا تثبت، تتغير ولا تغير، في ضوء ذلك أستشرف راية الأدب الإسلامي مرفوعة يحلق معها أدب الطفولة، تنطلق وتنمو وتحافظ في آن واحد؛ إن أدب الطفل المسلم هو المدخل الصحيح لإرساء دعائم الأدب الإسلامي فهو القاعدة التي تزداد ارتفاعاً ونموً كلما احتفلنا بجمهور الطفولة بؤرة مركز التلقي وأهدافه المشدودة.

أدب الطفل المسلم واقعه.. طموحاته:

إن نظرة إلى بعض المعتقدات السائدة في الحضارة المادية الحاكمة في عالمنا المعاصر، سيكشف برغم ذلك عن عمدة الانشقاق المنطقي بين كل تجمعات العالم البشرية ألا وهي: أهمية إكساء أو غرس الجانب الأخلاقي والتهديبي في نفوس الناشئين. وهنا أنه إلى ضيق نظرة ذلك الجانب المنطقي المتفق عليه عند بعض الشعوب لأسباب تتعلق بميراثهم الديني أو التراثي الشعبي، والحضاري أيضاً، مما تنافس معه نقاط الخلاف التي تنشأ بين مجتمع وآخر. وأمتنا العربية والإسلامية ليست كذلك؛ لأنها تحمل أتم ميراث روحي ومادي متلازمين، شريطة ألا نخدع بما يصل إلينا من «ديكور» الحقوق المدنية والإنسانية المعاصرة!! فأصولها... بل وتفرعاتها أتى بها الإسلام دستوراً متكاملًا منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. وبهنا هنا الإشارة إلى موقف الإسلام من الطفل؛ ذلك الموقف السوي المتوازن: تنشئة وتعلima ورعاية بدنية وعقلية ووجدانية.

أما واقع الطفل العربي المسلم المعاصر فلم يستفد من منجزات الحضارة العربية الإسلامية عبر تاريخها الطويل، فالدعوة شئ والتطبيق أمر آخر، فما يزال مثلث الفقر والجبل والمرض يطبق على أطفالنا، فالنسبة الغالبة من أطفال العالم العربي والإسلامي يعانون من أمراض الطفولة وسوء التغذية، وأكثر من نصف هؤلاء الأطفال «أميون» (٩)؛ ومعظمهم لا يتمتعون بطفولتهم رياضة وترويحاً. متعة ومنفعة وتسليية، فيقعون أسرى للوسيط الإعلامي الخطير «التلفزة» وصار «طرزان» أو «السوبرمان» أو حتى «سلاحف النينجا» هي البطولة المدمرة والمغامرات المرسومة!! ونسى أطفالنا «القدوة» و«الأنموذج» وما أكثرهما في حضارتنا العربية والإسلامية. إن

الطفل العربي المسلم يقرأ - صحيفته أو مجلته - بإملاء المقتبس أو المترجم من الثقافة الغازية، كذلك... مناهجنا بحاجة إلى «غريبال» يضع الثوابت ويؤمى أو يقدم المتغيرات المعاصرة في قوالب ومضامين متمعة وجادة؛ محوراً دائماً العقيدة والعلم.

الطموحات:

لعل أهم مؤشرات نتجاوز بها سلبيات واقع أدب الطفل وثقافته هي الإفادة من الرؤية الإسلامية السائدة في البناء السوي المتوازن للطفل، بالتأكيد على المرتكزات الإسلامية لما في آثارها الباقية والحاسمة في بناء شخصية الفرد. إن الأدب وفنونه أو أشكال التعبير الأدبي في أنواعه المتعددة يجب أن تخاطب عقل الطفل ووجدانه من منظور إسلامي وفني دون فصل التعارض بينهما، فالثقافة الغازية أو الوافدة تعربد أو تلعب في حديقة أطفالنا بلا رقيب أو تنسيق أو مجرد رفض ما يتعارض وعقيدتنا وأصولنا التربوية، وقيمنا وعاداتنا وتقاليدنا، وليس معنى كل ذلك أن الصورة قائمة لأقصى درجة، فهناك الجهود المتميزة على مستوى الهيئات والكتاب لتأسيس مدرسة عربية إسلامية عصرية تقدم كتاب الطفل ومجلته، برنامجه ومسرحة، ديوانه وأغانيه، لعبه وأنشيدته، تعليمه وصحته، رياضته وهوايته. وقد بلغت بعض الجهود القطرية شأواً في ذلك الميدان، إذا فليس من المستبعد أن تتكون «المدرسة العربية الإسلامية العصرية» في سائر أمتنا، المهم أن تتضافر الجهود وتصدق العزائم. مركز انطلاقنا دائماً الرؤية الإسلامية الإنسانية التي تبني ولا تهدم، تحب ولا تكبر ولا تنعصب، تمتد العنصرية وتحث على مكارم الأخلاق وتدعو للاقتداء بالسلف الصالح والنماذج الحديثة المثلى، وقبل كل ما ذكرناه التهيؤ المبكر لتحقيق الرؤية المشدودة لأدب الطفل المسلم عند القاعدة المستهدفة ونعني بها مرحلة رياض الأطفال، أما وسائنا إلى ذلك فالأدب قطرة رحمة نغمر بها فوق كافة الوسائط التربوية والثقافية والإعلامية، يومئذ تتحقق أهداف أدب الطفل المسلم: الأخلاقية والتربوية والجمالية والفنية.

المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- السيرة لابن هشام.
- ٣- ينظر: أطروحة دكتوراه في الأدب العربي (أدب الطفولة) لكتاب المقال. مخطوطة، كلية الآداب، جامعة الرقراق بمصر، (٨٦-١٩٩٠ م).
- ٤- (٣٠٢) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج ٨، ص ١٤٣٩.
- ٥- حديث الأربعة، د. طه حسين، ج ٢، ص ٢٢٣.
- ٦- ينظر: أدب الطفولة: أصوله... مفاهيمه، د. أحمد زلط، ط ٢ الدار العربية للنشر والتوزيع، تربية الأولاد في الإسلام، د. عبد الله ناصح علوان، المقدمة، أدب الطفولة رؤية مستقبلية، مقالة د. صابر عبد الدايم، الفصل، يونية ١٩٩٣ م.
- ٧- ثمار القلوب، للثعالبي، ص ٦٩٦.
- ٨- مقدمة ابن خلدون، ص ٥٢٢-٥٢٣.
- ٩- الطفولة والأمية، د. أحمد زلط، سلسلة أقرأ، دار المعارف، ١٩٩٣ م.

الركب المسافر

عيسى بن علي جابا

يا ليل أين أحبتي ورفاقي؟
يا ليل أين رحيلهم؟ أو يتركون
يا أيها الراكب المسافر لحظة
وعلى فمي وقف القريض كأنما
والعين غامت في رؤاها حين
وتفجرت منها ينابيع الأسى
العمير يمضي كله في لوعة

أستار ليل فراقنا قد أسدلت
أرعى النجوم وخافتي في لهفة
أرعى النجوم كأنما أنا موكل
كم بت أذكر ما مضى فتشديني

قد كنت لا أدعى من العشاق لكني
فسيوف هذا البعد فوق جباهنا
كانت موثيق الهوى معقودة

قد كان لي أمس جميل زاهر
فغدوت أرفل في ثياب سعادة
ويجر أذيال الهزيمة ليل أحزاني
وتنفس الصبح الوضي وزائنه

ومضيت في فرح فأنساني بأن
وإذا به أمسى ويا للحزن مثل
فيل موكني هم ويعصمني أسى
أنما لا أعيش بدونهم، أرايتهم
فرجعت لما ضقت ذرعاً سائلاً

هناك يا أحباب — يوم فراق
السيف مسلولاً على الأعناق
وأظلل في صمت وفي إطراق
شجرًا يعيش وليس ثمة ساق !!
يا ليل أين أحبتي ورفاقي ؟ !